تراث الإنسانية

كتاب الحيوان

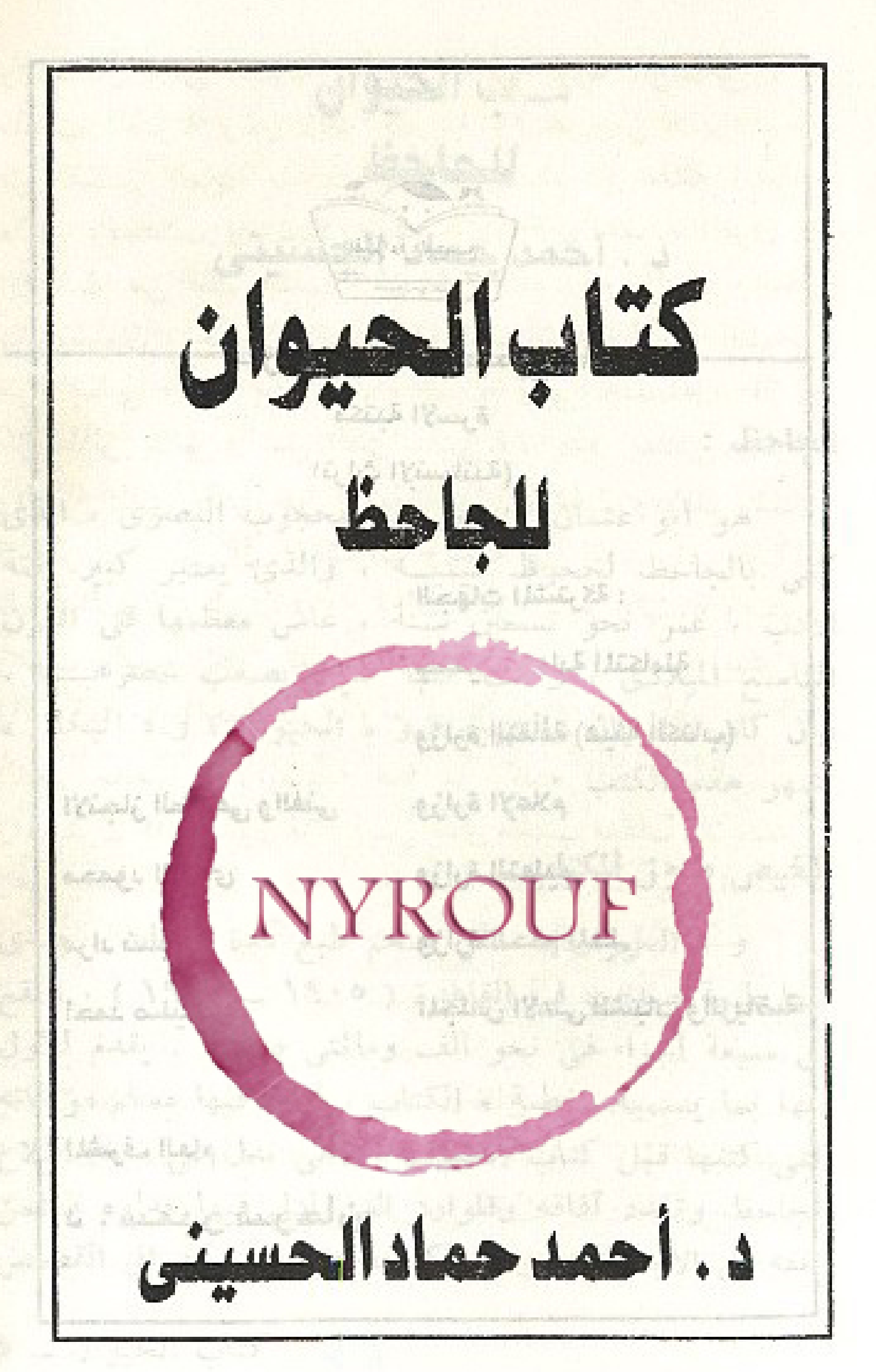
للجاحظ

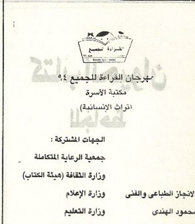


الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. أحمد حماد الحسينى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤


كتاب الحيوان
للجاحظ
NYROUF
د. أحمد حماد الحسيني


مهرجان القراءة للجميع ٩٤
مكتبة الأسرة
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
احمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان

كتاب الحيوان
للجاحظ

د . أحمد حماد الحسينى

الجاحظ :

هو أبو عثمان بن بحر بن محجوب البصري ، الذى كنى بالجاحظ لجحوظ عينيه ، والذى يعتبر كبير أئمة الأدب ، عمر نحو تسعين سنة ، عاش معظمها فى القرن التاسع الميلادى ، وكتب كتبا كثيرة يصعب حصرها ، وان كان « البيان والتبيين » و « الحيوان » و « البخلاء » أشهر هذه الكتب .

تلخيص موجز للكتاب :

و « الحيوان » سفر ضخم طبع عدة طبعات ، بيدى منها طبعة صدرت فى القاهرة (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) ، وتقع فى سبعة أجزاء فى نحو ألف ومائتى صفحة ، يقدم للأول منها بما يسميه «خطبة» الكتاب ، أورد فيها معظم مؤلفاته التى كتبها قبل كتاب الحيوان ، وهى تدل على سعة اطلاع الجاحظ وتعدد آفاقه والموارد التى أدلى فيها بدلوه : فمن الفقه الى الاجتماع ، ومن الكيمياء والرياضيات الى القصص

والتفسير ، الى البلاغة والبيان ، الى كتابة الرسائل ، الى مذهب المعتزلة وغير ذلك كثير ٠ وينتقل من هذه الخطبة الى تقسيم العالم بما فيه من الأجسام الى ثلاثة أنحاء : متفق ومختلف ومتضاد ، غير أنها كأن حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال نام وغير نام ، والنامي على قسمين ، حيوان ونبات ، والحيوان على أربعة أقسام : شيء يمشي وشيء يطير وشيء يسبح وشيء ينساح ، الا أن كل طائر يمشي وليس الذي يمشي ولا يطير يسمى طائرا ، والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام ، ناس وبهائم وسباع وحشرات ، على أن الحشرات راجعة في المعنى الى مشاكلة طباع البهائم والسباع ٠٠ والطير كل سبع وبهيمة وهمج ، وعرف الهمج التي تطير بأنهـا كالحشرات فيما يمشي ، والحيات من الحشرات ، ويعرف السباع من الطير ما أكل اللحم خالصا ، والبهيمة منه ما أكلت الحب خالصـا ، والمشترك كالعصفور فانه ليس بذي مخلب معقف ولا منسر ، وهو يلقط الحب ، وهو مع ذلك يصيد النحل اذا طار ، ويصيد الجراد ويأكل اللحم ، ولا يزق فراخه كما تزق الحمام ، بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها ، وينكر أن الريش من مميزات الطيور لأنه يعتبر الخفاش والوطواط من الطيور مع أنهما أمرطان ، ويشتهران بالحمل والولادة وبالرضاع ، وبظهور حجم الآذان ، كما أنه لا يعتبر النعامة من الطيور على الرغم من أنهـا ذات ريش ومنقار وبيض وجناحين ٠

وينقلنـا الجاحظ الى حيوان الماء ، ويجيد اذ يقول ليس كل عائم سـمكة وان كان مناسبا للسمك في كثير معانيه ، ألا ترى أن في الماء كلب الماء وعنز الماء وخنزير الماء وفيه الرق والسلحفاة ، وفيه الضفدع ، وفيه السرطان والتمساح والدخس والدلفين واللخم وغير ذلك ، ثم يقسم الحيوان الى فصيح وأعجم ، والفصيح هو الانسان والأعجم هو الحيوان ٠ ومن الأعجم ما يرغو ويثغو وينهق ويصهل ويشحج ويخور ويبغم ويعوي وينبح ويزقو ويضغو ويهدر ويصفر ويصـوصي ويقوقي وينعب ويزأر ويكش ويعج ٠ ثم فارق بين أصوات الحيوان الواحد ، فدعاء الهرة خلاف دعائهـا لولدهـا ٠ وينتقل بعد ذلك الى أقسام البيان ، ويسرد فقرات حسانا في مدح الكتب في باب من الأدب الرفيع ، والأسلوب البديع الرصين ، ثم يعرج على الخط ومقدار الحاجة اليه ، ومنه على تاريخ الشعر قبل الاسلام ، وعلى أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب ٠ ويقول عن الترجمان (يقصد المترجم) لا بد من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة ، والمنقول اليها حتى يكون فيهما سواء وغاية ٠

ونراه بعد هذه الخطبة الطويلة يبدأ الكتابة في أول أبوابه المحددة ، وهو باب ما يعتري الانسان بعد الخصاء ، وكيف ما كان قبل الخصاء ، ثم يعرج على خصاء البهائم ويصف أنواعه ، وهي الوجاء ، وما يكون بالشد والعصب

والشقية التحويقي ، والعقد بالخيط الشديد ثم الامتلاخ ، وكيف كانت تلجأ العرب الى خضاء فحولة الإبل لئلا يأكل بعضها بعضا ، وتستبقي ما كان أجود ضرابا وأكثر نسلا ، والديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويحمل الشحم ..

ثم ينتقل الى باب طويل عن الكلاب يبدأه بما ورد في ذمها وتعداد أصناف معايبها ومثالبها وخبثها وضعفها وشرهها ، وقذرها وبذائها ، وجهلها وتسرعها ونتنها وقذرها ، ثم اذا هو يتحدث عن محاسنها ومناقبها ، وحراستها ووفائها ، وألفها وجميع منافعها ، والمرافق التي فيها ، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة ، والحس اللطيف والأدب المحمود ، وصدق الاسترواح وجودة الشم ، واهتدائها واثباتها لصور أربابها وجيرانها ، وصبرها على الجفاء ، واحتمالها للجوع ، ويقظتها وقلة غفلتها ، وبعد أصواتها وكثرة نسلها ، وسرعة قبولها وتصرف أرحامها في ذلك مع اختلاف طبائع ذكورها ، والذكور من غير جنسها ، وكثرة أعمامها وأخوالها ، وعن دوائها وأدوائها .
وهو يتطرق في هذا الباب الطويل الى مسائل كثيرة منها عادة بعض الناس الذي يشتهي اللحم بعد أن يسترخي فيذبح الديكة والبط والدجاج في أول الليل ، وهي عادة شائعة في بلاد الغرب ويأخذ بها كثير من الناس في مصر اليوم ، وعن فوائد التسميد للزرع بالعذرة والأبعار وما أشبه . ويسهب في وصف كلاب الصيد وكلاب الزرع

وكلاب الماشية (أو كلاب الضرع) وكلاب البيت . وينتقل الى الديكة وما ورد عن مثالبها ، وبخاصة نقر العين .

وينتهي الجاحظ من الجزء الأول ليبدأ الجزء الثاني فيسهب في الحديث عن الكلاب مرة أخرى ويوازن بين الديك والكلب ، وأنه مهما بلغ من فضل قوة طباع الديك في الايقاح أنه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضا صغارا من نتاج الريح والتراب (!) قلبها كلها حيوانا ولو لم يكن سفدها الا مرة واحدة ، الا أن الكلب اذا عض انسانا فأول ذلك أن يحيله نباحا مثله وينقله الى طباعه فصار ينبح (وهذا بالطبع بالنسبة الى الكلب المسعور ولا تفعله الكلاب كلها) ثم يحبله ويلقحه بأجراء صغار يبولها علقا في صور الكلاب (وهذه خرافة بالطبع) .

ثم أورد صفة ما يستدل به على فراهية (أي حذق) الكلب ، أن يكون صغير الرأس ، طويل العنق غليظهما ، وأن يكون أغضف مفرط الغضف (أي متكسر أعلى أذنيه الى مقدمه) ويكون أزرق العينين طويل المقلتين ، ناتىء الحدقة طويل الخطم واسع الشدقين ، ناتىء الجبهة عريضها ، ويكون قصير اليدين طويل الرجلين ، لأنه اذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب ... الخ .
وقد وصف شيئا يداوى به الكلب من وجع البطن والديدان ، وهو أن يطعم قطعة الية وصوف وصوف شاة معجونا بسمن البقر ، فانه يلقى كل دود وقذر في بطنه . وفي هذا الباب

ذكر للعادة وأثرها فى الكلاب ، مما يسميه علماء الفسيولوجية فى العصر الحاضر الانعكاسات المشروطة ، والتى قام فيها العالم الروسى الشهير بافلوف ببحوث مشهورة • ومن طريف ما يرويه الجاحظ فى هذا الصدد أن كلبا اذا كان يوم الجمعة أقل قبل صلاة الغداة الى باب جارية فلا يزال هناك ما دام على معلاق الجزار شيء من اللحم ، وباب جارية تنحر عنده الجزر فى جميع أيام الجمعة خاصة ، وكان لهذا الكلب عادة ، ولم يره أحد فى ذلك الموضع فى سائر أيام الجمعة حتى اذا كان غداة الجمعة أقبل ، فليس يكون مثل هذا الا عن مقدارية بمقدار ما بين الوقتين •• ويتحدث عن فترة الحمل عند الكلاب ومتى يظهر اللبن فى أطباء الأنثى وحال الجراء بعد ولادتها •• ويحكى عن تكوين الفروج من البيضة ، فقال اذا لم يكن للبيضة مح لم يخلق من البيضة فروج ولا فرخ ، لأنه ليس له طعام يغذوه ويربيه ، واذا كان للبيضة محان خرج منها زوجان ، ويقول عن الفروج فى داخل البيضة انه يكتمل الخلقة فى عشرة أيام ، والرأس وحده يكون أكبر من سائر البدن (وهذا صحيح) ، ثم انتقل الى الحديث عن بيض الطيور عامة وعدد مرات وضعه وعدده وحضنه • وله باب فى الأسنان وأسمائها ، وهى ثنيتان ورباعيتان ونابان وضاحكان وأربعة أرحاء سوى ضرس الحكم والنواجذ والعوارض سواء ، ومثلها أسفل •

وينتقل الجاحظ الى الجزء الثالث ، وفيه خليط

عجيب بين الجد والهزل ، وان كان هذا الجزء أعمق وأجمل فى التحدث عن صنوف الحيوان ، فهو يبدأ بنوع من الاعتذار عن كثرة ما أورد من الجد والاحتجاجات الصحيحة والمزوجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول بقوله « فاستنشطنا ببعض البطالات وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريبة » وأخذ يقص بعض الطرائف ، وأفراد بابا لصدق الظن وجودة الفراسة ، وآخر عن الجمال وثالثا عن الغضب والجنون ورابعا عن الفطن وفهم الرطانات والكنايات والفهم والافهام ، ثم يتطرق الى الحديث عن الحمام فيقول : انه كل طائر يعرف بالزواج ، ويحسن الصوت والهديل والدعاء والترجيع وان خالف بعضه بعضا فى الصوت واللون وفى بعض النوح والهديل والدعاء والترجع ، حتى قال ، والقمرى حمام ، والفاختة حمام والورشان حمام ، كذلك اليمام واليعقوب (أى ذكر الحجل) وضروب أخرى كلها حمام ، وما من شك فى أن الجاحظ صادق فى تعبيره اللغوى أيما صدق ، لأن الحمام فى اللغة يطلق على عديد من الطيور ، وكذلك الحال فى كثير من اللغات لما يقابل الحمام • ثم انه يصف بناء العش ورعاية الأبوين للصغار ، فى عبارة جميلة صادقة سوف أقتبسها فيما بعد • ويتحدث عن حالات الطعم الذى يصير فى أجواف الحيوان ، وكيف تتصرف الحالات وتختلف فى أجناسها الوجوه ، فمنها زق الحمام لفرخه ، والزق فى معنى القيء أو فى معنى التقيؤ وليس هما وجرة البعير والشاة فى معنى ذلك

وليس به . ثم أورد ما زعمه الأصمعى من أنه سمع رجلا من العرب ، قال لصاحب له اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر الى أخوالها وأعمامها واخوتها فانها لا تخطىء الشبه بواحد منهم ، وهو قول يدل على دقة الملاحظة وأصل من أصول الوراثة الحديثة ، وان كان الجاحظ قد أنكر هذا بعض الانكار ، اذ يعلق عليه بقوله : « ان كان هذا الموصى والحكيم جعل ذلك حكما عاما فقد أسرف فى القول . ويتحدث عن الهجن بين الحمام فيقول اذا ما تزاوجت بين متفقها ومختلفها يكون تام الخلقة مأمول الخير ، فمن نتاج الحمام اذا كان مركبا مشتركا كالزاغب والوردانى ، وعلى أن للوردانى غرابة لون وظرافة وللزاغبى فضيلة فى عظم البدن والفراخ ، وله فى الهديل والقرقرة ما ليس لأبويه .. ووصف مشى الحيوان فقال : ان كل ذى أربع فانه اذا مشى قدم احدى يديه ولا يجوز أن يستعمل اليد الأخرى . واذا حرك الرجل اليسرى لم يحرك الرجل اليمنى ، وهى أقرب اليد ، وأشبه بها حتى يحرك اليد اليسرى . ومن عجيب تخريج الجاحظ عن الزنج أن أرحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق ، وكشطت الشمس شعورهم فتقبضت ، والشعر اذا أدنيته من النار تجعد ، فان زدته تفلفل ، فان زدته احترق ... ويرجع الى الحمام مرة أخرى فيقول عنه ، انه طائر ألوف مألوف ومحبب ، وموصوف بالنظافة حتى أن ذرقه لا يعاب ولا نتن له كسلاح الدجاج والديكة ، وقد يعالج بذرقه صاحب الحصاة ، والفلاحون يجدون فيه

أكثر المنافع ، والخباز يلقى الشىء منه فى الخمير لينتفخ العجين ، ويعظم الرغيف ثم لا يستبين ذلك فيه ، ولذرقه غلات يعرف ذلك أصحاب الحجر ، وهو يصلح فى بعض وجوه الدبغ . ويتحدث عن العناية بنظافة قراميد وبروج الحمام وأحسن طرق بنائها وتشييدها ، ويعرج بعد ذلك على أمراض الحمام وطرق علاجها . ويخصص بقية هذا الجزء الثالث للذبان والغربان والجعلان والخنافس ثم للهدهد والرخم والخفاش ، كأنه جمع بينها على أنها من الطير . والذبان فى حكم العرب الفراش والنمل والزنابير والدبر . ومما ذكره عن الذباب أن فيه خصلتين محمودتين ، قرب الحيلة لصرف أذاها ، ودفع مكروهها ، فمن أراد اخراجها من البيت ، فليس بينه وبين أن يكون البيت على المقدار الأول من الضياء ، الا أن يغلق الباب ، فانهن يتبادرن الى الخروج ويتسابقن فى طلب الضوء والهرب من الظلمة ، والفضيلة الأخرى أنه لولا أن الذبابة تأكل البعوضة تطلبها ، وتلتمسها على وجوه حيطان البيوت ، وفى الزوايا ، لما كان لأهلها فيها قرار (هكذا ذكر الجاحظ) . وأشار الى الليث (وهو نوع من العنكبوت) وطريقته فى صيد الذبان . وأشار الى النعر (وهو ضرب من الذبان) الذى قد يدخل فى أنف البعير أو السبع

---

(١) الذبان ج ذباب ، غير ان الجاحظ يطلقها هنا على عديد من الحشرات .

فيورم أنفه • ومما سقط فيه الجاحظ ايمانه بالتولد الذاتى مما سوف أشير اليه فيما بعد • ثم تطرق الى نوم الحيوان وما الذى ينام منه وما الذى لا ينام وعلة ذلك • ودخل بعدئذ فى باب طويل عن الغربان ، معنى اسمها واشتقاقه ، أنواعها وعاداتها فى التماس الطعم ، واختلافها فى الصيف والشتاء ، وتسافدها وشكل فرخها • وهنا يخرج عن الحديث عن الحيوان ويتحدث عمن يهجى ويذكر بالشؤم ، ثم عما جاء فى مديح الصالحين جريا على عادته فى دفع السأم عن القارىء ، ثم يتذكر موضوعه ليحدثنا عن الجعلان والخنافس ، ويعرج على الهدهد ثم الرخم ، ويكتب بابا عن الخفاش هو من أمتع ما جاء فى الكتاب وسوف أقتبس منه فيما بعد • وينتهى بذلك من الجزء الثالث •

ويبدأ الجاحظ الجزء الرابع من كتابه بباب عن الذرة ، وهى واحدة الذر الذى هو صغار النمل • ويتحدث فى أسلوب رائع عن ادخارها للشتاء ، وفلقها الحب وحملها أضعاف أوزانها ، وتفاهمها مع صويحباتها • ويتحدث بعدئذ عن القرد والخنزير ، وعما يؤكل من لحم الحيوان من الحيات والأفاعى ، الى اليرابيع والضباب والذبان ، والزنابير والجراد والعقارب التى يقول عنها انها تؤكل مشوية ونية ، وأنها كالفراخ السمان ، وقد جربها بنفسه • وعن الراذين (أى الدواب) وأسرامها المحشوة والسراطين

والرق والكوسج (وهما السلحفاة البحرية وسمك القرش) والليل (وهو اللحم الذى فى جوف الأصداف) الى غير ذلك • ويعود الى الخنازير ويسهب فى القول عنها ، فهى شديدة البأس ، ربما تقتل الأسد ، وعن كثرة نسلها ، فالواحدة قد تضع عشرين خنوصا ، وعن طيب لحمه • ويعود الى الحيات فيصف أنواعها وكيف تحصل على طعمها ، وأنها تلد وتبيض ، وأنها ليست بذات قوائم ، وانما تنساب على بطنها ، وفى تدافع أجزائها وتعاونها فى حركتها ، الكل من ذات نفسها ، دليل على افراط قوة بدنها • وربما كانت الحيات عظاما جدا ولا سموم لها ، ولا تنقر بالعض ، وفى البادية حية يقال لها الحفاث ، تأكل الفأر ولها وعيد منكر ، ونفخ واظهار للصولة ، وما أكثر ما يكون بين أعناق الحيات تخصير ، ولصدورها أغباب ، وذلك فى الأفاعى أعم (وهذه مشاهدة جيدة) • ثم تعرض الى وصف طريقة الحواء فى الامساك بالحيات ، ويتطرق الى الحديث عن سلخ الحيوان (أى تساقط جلده) مبتدئا بالحية ، ويقول ان جميع الحيوان المحرز الجسد يسلخ • وكل طائر لجناحه غلاف مثل الجعل والدبر ، وكذلك السرطان يسلخ فيضعف عند ذلك عن المشى ، وتسلخ جلودها مرارا ، والسلخ يصيب عامة الحيوان ، أما الطير فحسيرها ، وأما ذوات الحوافر فسلخها عقايقها (أى الشعر الذى يولد عليه كل مولود من الناس والبهائم) ، وسلخ الأيايل القاء قرونها • وسلخ الأشجار اسقاط ورقها ، والأسروع (أى يرقانة

الفراشة) دويبة تنسلخ فتصير فراشة ، والدعموص (أى يرقانة البعوضة) ينسلخ فيصير اما بعوضة واما فراشة . ومن بديع وصفه مخالب الأسد وأشباه الأسد من السباع أنها تكون فى غلق ، اذا وطئت على بطون أكفها ترفعت المخالب ودخلت فى أكمام لها ، وكذلك أنياب الأفاعى هى ما لم تعض فمصونة فى كأمام . ويعرج على الظليم (وهو ذكر النعامة) ويقول ان من أعاجيبه أنه يغتذى الصخر ويبتلع الحجارة ، ويعمد الى المرو من الحجارة التى توصف بالملاسة ، ويبتلع الحصى ، والحصى أصلب من الصخر ، ثم يميعه ويذيبه من قانصته حتى يجعله كالماء الجارى ، ويقصد اليه وهو واثق باستمرائه وأنه له غذاء وقوام ، ويعلق الجاحظ على ذلك بقوله « ان فى ذلك أعجوبتين ، احداهما التغذى بما لا يتغذى به ، والأخرى استمراؤه وهضمه للشىء الذى لو ألقى فى شىء ثم طبخ ، أبدا ما انحل ولا لان ، والحجارة هى المثل المضروب . ومن زعم أن جوف الظليم انما يذيب الحجارة بقيظ الحرارة فقد أخطأ ، ولكن لا بد من مقدار للحرارة نحو غرائز أخر وخاصيات أخر ، على أن القول فى الخاصيات والمقابلات والغرائز حق .. ألا ترى أن جوف الكلب والأسد يذيبان العظام ولا يذيبان نوى التمر ، ونوى التمر أرخى وألين وأضعف من العظام المصمتة ، وما أكثر ما تهضم العظم ، وقد يهضم العظم جوف الأسد ، مما يدل على أن جوف النعامة ليس يذيب الصخر الأملس بالحرارة ، ولكنه لا بد

على كل حال من مقدار من الحرارة مع خاصيات أخرى » يقول عنها انها ليست بذات أسماء ولا تعرف الا بالوهم فى الجملة . والجاحظ مخطىء فى هذا لأن الظليم انما يبتلع الحصى ليساعده على تفتيت الحبوب ، وأما الأسد والكلب فيذيبان جوفهما العظام بفضل وجود حمض فى المعدة ، وهو ما أشار اليه بأنه خاصية ليست ذات اسم ولا تعرف الا بالوهم فى الجملة . ويختتم الجزء الرابع بباب عن النيران .

ويعود الى النيران فى بداية الجزء الخامس فيذكر نيران العرب والعجم ، ونيران الديانة ومبلغ أقدارها . ويكتب بعدئذ بابا فى الماء وخواصه ، فهو الذى لا ينعقد من دون الأشياء الرقيقة ، وهو لا يغذو وانما هو مركب ومعبر موصل للغذاء . والماء هو الجوهر القابل لجميع القوى . وينتقل الى أجناس الطير التى تألف دور الناس وهى العصافير والخطاطيف (يقصد عصافير الجنة) والزرازير والخفافيش ، فبين هذه مناسبة ومشاكلة وألفة ومحبة ، والخطاطيف تقطع اليهم وتغرب عنهم ، والعصافير لا تفارقهم . ويقول : وقد يأكل الأسد الملح ليس على طريق التغذى ، ولكن على طريق التملح والتحمض (وتلك مشاهدة بديعة عن بعض ضروب الحيوان والوحش ، لما للملح الذى تفتقده بالقدر اللازم من غذائها من أهمية فى فسيولوجية الدم وتكوين حمض الكلوردريك الذى تفرزه المعدة) .. وفى باب القول فى القمل والصؤاب يقول، والقمل يعترى من

العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر ، حتى يكون لذلك المكان عفن وخموم ، والقملة تكون فى رأس الأسود الشعر سوداء ، فاذا كانت فى رأس الخضيب بالحمرة كانت حمراء ، وان كان الخاضب ناصل الخضاب ، كان لونها شكله ، الا أن يستولى على الشعر النصول فتكون بيضاء ، وهذا شىء يعترى القمل كما تعترى الخضرة دود البقل وجراده وذبابه وكل شىء يعيش فيه ، وهكذا قول فى المشاكهة (أى مشابهة الحيوان الوسط الذى يعيش فيه) لم يغب عن الجاحظ · ووصف بيت العنكبوت الدقيق الصنعة ، فانه يصعد بيته ويمد الشعر ناحية العروق والأوتاد ، ثم يسدى من الوسط ، ثم يهيىء اللحمة ، ويهيىء مصيدته فى الوسط ، فاذا وقع عليها ذباب وتحرك ما هناك ارتبط وينشب فيه ، فيتركه على حاله ، حتى اذا وثق بوهنه وضعفه غله وأدخله الى خزانته ، وان كان جائعا مص من رطوبته ورمى به ، فاذا فرغ زم ما تشعث من نسجه ·· وينتقل الى الحبارى (وهى طائر صحراوى مشهور) ، ومنها الى الضأن ، والمعز ثم الى الضفادع ، وروى عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلها (وليت الرواية صحيحة لأنها تغتذى بالحشرات) ·· ثم وصف طريقة صيد طير الماء ·

والجزء السادس خليط عجيب بين بعض أنواع الحيوان وأشياء شتى أخر ، منها أسماء لعب الأعراب والجن ،

وبعض القصائد والنوادر والأشعار والأراجيز ، وأحاديث فى أعاجيب المماليك ، والشهب ، واستراق السمع ، الى حديث عن الضب واليهدهد والظبى والتمساح والأرانب والظربان · ومن المشاهدات الموجبة للالتفات ، معرفتهم بأن لضب ايرين وكذلك للسقنقور وللحرذون ، وهى صفة تشريحية ثابتة لكثير من الزواحف وان لم يتعرض لها فى الحيات · وقد وصف التمساح بأنه مختلف الأسنان ، فينشب فيه اللحم فيغمه فينتن عليه ، وقد جعل فى طبعه أن يخرج عن ذلك الى الشط ويشحى (أى يفتح) فاه لطائر يعرفه بعينه يقال انه طائر صغير أرقط ، فيجىء من بين الطير ، حتى يسقط بين لحييه ثم ينقره بمنقاره حتى يستخرج جميع ذلك اللحم فيكون غذاء له ومعاشا ، ويكون تخفيفا عن التمساح وترفيها ، فالطائر الصغير يأتى ما هنالك يلتمس ذلك الطعم والتمساح يتعرض له لمعرفته بذلك منه (وهذه مشاهدة صادقة معروفة عن تمساح النيل) ، والطائر اسمه الزقزاق المصرى (بلوفيانس ابجبتيوس) وقد أخذ يقل من مصر بعد اختفاء التمساح منها) ·· ويتحدث عن اليربوع ، فيقول انه دابة كالجرذ ، منكب على صدره لقصر يديه ، طويل الرجلين له ذنب كذنب الجرذ ، يرفعه الصعداء اذا هرول ، واذا رأيته كذلك فيه اضطرابا وعجبا ·

والجزء السـابع قصير ، قصره على ضرب الأمثال بالوحش والطير وما يستدل به فى شأن الحيوان على حسن

صنع الله واحكامه وتدابيره ، وعلى ما جاء فى الفيلة من عجيب التركيب وغريب التأليف ، فى المعارف الصحيحة ، والاحساس (!) اللطيفة ، وفى قبولها التثقيف والتأديب ، وسرعتها الى التلقين والتقويم وما جاء فى أبدانها من الأعضاء الكريمة والأجزاء الشريفة • ويستشف القارئ من هذا الباب شدة اعجاب الجاحظ بالفيل ، فهو أضخم حيوان ، وهو مع ضخمه أملح وأظرف وأخطر ، وهو يفوق فى ذلك كل خفيف الجسم ، رشيق الطبيعة ، ويرد على من ادعى عظم الحية بقوله : انه متى مسحنا طولها وثخنها وأخذنا وزنها فكانت أكبر من الفيل فانا لم نسمع بهذا الا فى أحاديث القرائين والحوائين ، وأما التنين فانما سبيل الايمان فيه سبيل الايمان بعنقاء مغرب ! ••• والفيل أقوى من جميع الحيوان فى حمل الأثقال ومن قوة عظمه وعظمه أنه يمر خلف القاعد مع عظم بدنه فلا يشعر بوطئه ولا يحس بسيره لاحتمال بعض بدنه لبعض ، وليس فى حوامل اناث الحيوان أطول مدة حمل من الفيل والكركدن •• ويتحدث فى باب عن الزرافة وناقش ما تواترته الناس عن أصلها وكيف أنها نتاج بين ناقة ونمر وغير ذلك ، وهو فى حيرة من أمر هذه المتواترات • ثم يشير الى فرس الماء (أو فرس البحر أو النهر) ، وينقل أخبار الناس عنه ، فهو يأكل التمساح (!) ويقول انه يؤذن بطلوع النيل بأثر وطء حافره ، فحيث وجد أهل مصر أثر تلك الأرجل عرفوا أن

النيل ينتهى فى طلوعه الى ذلك المكان ، وهذا الفرس ربما رعى الزرع •

تحليـــل الكتـــاب :

كتب الجاحظ كتابه هذا فى عصر من أزهر عصور العلم عند العرب ، وهو القرن التاسع الميلادى ، فى ابان حكم الخليفة الرشيد والمأمون ومن تبعهم من الخلفاء العباسيين (مات الجاحظ فى خلافة المهتدى عام ٨٦٨ م) • وقد سافر الى الشام وأنطاكية وجاب صحارى جزيرة العرب ، فشاهد وتعلم ودرس وجرب وجمع وروى ، غير أن الجاحظ فى رأينا : هو أنه أول كل شىء ، راوية من الطراز الأول ، ولابد أن كان له مجلس يختلف اليه الناس من العلماء وغيرهم ، يتدراسون ويروون فيه ، ويقال : انه كان محبوبا من كل من فى البصرة ، ولاة وأعيانا ، عربا وفرسا •

وانك لتجد كتابه فى بعض صفحاته كأنه لا يمت الى موضوعه بصلة ، يتندر بالأشعار فى اسراف ، وبالروايات ، فيما يقوله الأعراب وأهل الحضر • وهو مؤمن بالشعر أشد الايمان حتى أنه ليقول : « ان العجم كانت تعتمد فى تخليدها على البنيان ، أما العرب فعلى الشعر » ، وهو يعتقد أن كل ما ورد فى كتب العلماء وارد فى أشعار العرب فهو يقول « وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من

الفلاسفة وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدنا قريبا منه فى أشعار العرب والأعراب ، وفى معرفة أهل لغتنا وملتنا ، ولولا أن يطول الكتاب لذكرت لك الجميع » ولعله كان متأثرا بما قاله ابن عباس « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب » .. ولنقتبس هنا بعضا من الشعر من بين آلاف الأبيات التى زين بها كتابه ، يقول ، قال الشـــاعر :

وتمســـح النيل عقاب الهوى
والليث رأس ولــه الأمــر
ثـــلاثة ليس لهم غـــالب
الا بمـــا ينتقض الـــدهر

ثم يردف : فانهم يزعمون أن الهواء للعقاب والأرض للأسد والماء للتمساح ، وليس للنار حظ فى شىء من أجناس الحيوان ، فكأنه سلم الرياسة على جميع الدنيا للعقاب والأسد والتمساح ، وقد يكون هذا صحيحا لو أخرجنا البحر من حسابنا .

ويقول ، قال الأخطل :

ضفادع فى ظلماء ليـــل تجاوبت
فدل عليها صـــوتها حية البحر

وهو بيت من الشعر فيـــه معنى علمى ومشاهدة صادقة .

ويقول : وقالوا فى اللغز وهم يعنون الخفاش :

أيا شعراء الناس لاتخبرونني
وقد ذهبوا فى الشعر فى كل مذهب
بجلدة انسان وصورة طـائر
وأظفار يربوع وأنياب ثعلب

على أن هذا كله ان دلك على شىء ، فانما يدلك على أن الجاحظ كان قارئا من الطراز الأول ، كما أنه كان حافظا واعيا ، ويقال : انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، كما يقال انه مات والكتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه . وكتابه أشبه ما نسميه فى العصر الحاضر بدائرة معارف ، يسرد فيهـــا الكاتب كل ما ورد منشورا فى موضوع بعينه ، وقد زاد الجاحظ ما سمع به فى مجلسه وما وعته ذاكرته العظيمة الحافظة ، وما شاهده بنفسه فى موضوع كبير كموضوع الحيوان . وهو لم يكن يقرأ للعلماء العرب وحسب وانما كان يقرأ للعلماء الأجانب من أمثال أرسطاطاليس ومعلمه افلاطون وأبقراط وبطليموس وجالينوس ، فقد ورد ذكر هؤلاء فى كثير من مواضع الكتاب ، فالجاحظ اذن كان واســـع

الاطلاع ، على أن موهبته فى الكتابة بأسلوب أدبى رائع سلس العبارة كانت بطريقة اشتهرت بين كتاب العصر العباسى بطريقة الازدواج والاطناب ، أى الاكثار من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج .. فلنقرأ أولى كلماته فى التقديم : « جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا ، وحبب اليك التثبت ، وذين فى عينك الانصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق ، وأودع صدرك البر واليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما فى الباطل من الذلة وما فى الجهل من القلة .. » وهو اذ يكتب يقول عنه « تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربيا أعرابيا ، واسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة ، يشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ، يشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتبيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبى كما يشتهيه الفطن » .. ولهذا فقد عمد الى الرواية والقصة والتجربة والمشاهدة والنادرة والفكاهة فى أسلوب خاص ، قد تبينت سلاسته ، فهو يقول « ان الأسماع تمل حتى الأصوات المطربة والأغانى الحسنة اذا طال ذلك

عليها » فاذا ما نهجنا نهجه فلنقتبس منه هذه الفكاهة على لسان أعرابى :

ليل البراغيث أعيانى وأنصبنى
لا بارك الله فى ليل البراغيث

كأنهن وجلدى اذ خلون به
قضاة سوء أعاثوافى المواريث

فجاء كتابه طويلا ، وهو عرف بذلك فيدافع عنه بقوله « فرأيت أن جملة الكتاب وان كثر عدد ورقه ، أن ذلك ليس مما يمل ويعتد على فيه بالاطالة ، لأنه وان كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حدة ، فان أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبدا مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جماما لبعض ولا يزال نشاطه زائدا ، ومتى خرج من أى القرآن صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى شعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل والملال اليه أسرع ، حتى يفضى به الى مزح وفكاهة ، والى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفا اذ كنت انما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء .. » على أنه مع ذلك قد أسبق

هذا القول بالعبارة الآتية « وينبغي لمن كتب كتابا أن لا يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور وكلهم متفرغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا ، ولا يرضى بالرأي الفطير ، فان لابتداء الكتاب فتنة وعجبا ، فاذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طبعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ٠٠ » .

وهو كعالم حيوان كان يحاول أن يصنف ، وكان تصنيفه بدائيا في بعض الأحيان وان كان لم يفارق ما سبقه من تصنيف ، فالتصنيف العلمي الحق وليد القرن الثامن عشر ، أي بعده بنحو تسعة قرون ٠ وكان يحاول أن يضع القاعدة ، فمثلا يحدثنا عن الأرجل ، ويذهب الى أنها تكون أزواجا أزواجا ، فاذا سمع بحيوان له مائة رجل لم ينكره ، ولكن اذا نقصت واحدة منها أنكره ٠ وكان لا يؤمن بالخرافات ويعقب عليها بقوله : « وهو من أحاديث الباعة أو العجائز » أو « فاذا به أكذب البرية » أو « وذلك خرافة من خرافات الأعراب » أو « لا يكون ذلك حتى يجمع بين الماء والنار ، وحتى يشيب الغراب » فهو دائما أبدا يحكم العقل أولا ٠ وله من تواضع العلماء أوفى نصيب فهو دائما يقول « يقولون » أو «يقال» أو « قال صاحب الديك » أو « قال صاحب الحمام »

عندما يكتب عن الديك أو الحمام ، كأنما لم يكن دوره الا الجمع ، وحتى في ذلك يقول ان ما جمعه قليل ، فلنستمع اليه وهو يتحدث عن الضفدع « وأنا ذاكر من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي وهو قليل في جنب ما عند علمائنا والذي عند علمائنا لا يحسن في جنب ما عند الله تبارك وتعالى » ٠ وان لاقارىء ليستشف من كتابه أنه تواق الى الأدب ، شغوف بالرواية ، فقد لا يكون في أسلوب بعض العلماء العرب المشهورين تلك الحلاوة التي تميز أسلوب الجاحظ الذي نعت بحق بكبير أئمة الأدب ، كما قيل عنه أيضا ان ذكر أدب العلماء ، فهو آدبهم ، وان ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم ٠ على أننا لا نستطيع أن ننكر عليه شغفه بالتجريب ، فقد كان يضع صنوف الحيوان من عقارب وحيات وجعلان في قوارير من زجاج ليرى كيف تصطرع وأيهما أقتل للأخرى ، وكان يربط حيوانين بذيليهما ليرى أيهما أقدر من الآخر ، بل كان يبقر بطون بعض الحيوان ليرى عدد الولد فيه ، ويجرب بنفسه ما قاله غيره ، فيقول : « قيل ان النمل يقتل بأن يصب في أفواه بيوته القطران والكبريت الأصفر ويدس في أفواهها الشعر » ثم يردف « وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلا » كما كان يتذوق طعم لحم الحيوان حتى العقرب ٠ فهو أول عالم من علماء الحيوان التجريبيين ، ان جاز القول ٠٠ غير أن كل ما وصفه من الحيوان شكله الخارجي ولم يتعرض لتشريحه الا نادرا ، فهو شديد

الملاحظة ممتاز ، وهي أحد أركان العبقرية التي كانت فيه والتي يستكملها بالركنين الآخرين ، وهي قوة الحافظة ومقدرته على التعبير بعبارة سهلة وأسلوب سليم ، ولا غرو فهو صاحب البيان والتبيين . وقد وصفه بعض الأدباء بأنه أديب فكه عالم فيلسوف . وللجاحظ تخريج لطيف في التفسير فيقول عن لحم الخنزير انه طيب « وان من عافه انما عافه من طريق العادة والديانة لا من طريق الاستقزاز والزهد الذي يكون في أصل الطبيعة . فتحريم الأغذية انما يكون من طريق العبادة والمحنة ، وليس أن جوهر شيء من المأكول يوجب ذلك ، وانما قلنا انا وجدنا الله تعالى قد مسخ عبادا من عباده في صور الخنازير فكان المسخ على صورته أبلغ من التنكيل » ، وقد اتهم لهذا ولأسباب أخرى بالزيغ .

وللجاحظ مذهب فريد في التولد الذاتي ، وهي فكرة عبر عنها أرسطو من قديم ، ولم يقض عليها سوى سبالانزاني في القرن الثامن عشر وباستير في القرن الذي يليه ، وهي أن بعض الحيوان يتولد تلقائيا من الطين أو الجبن أو الماء وغير ذلك . فيقول الجاحظ « والبعوض من الماء يخلق وكيف يفارقه والماء الراكد لا يزال يولده فان صار نطافا أو ضحضحا استحال دعاميص ، وانسلخت الدعاميص فصارت حواس وبعوضا » .. ويقول ويزعم كثير من الأعراب أن الكمأة تتعفن ويتخلق منها أفاعي ،

فهذا الخبر وان كنت لا أسرع الى رده فاني على أصحابه ألين كفا .. غير أنه يزيد بهذه العبارة .. وقد أنكر ناس من العوام وأشباه العوام أن يكون شيء من الخلق كان من غير ذكر وأنثى ، وهذا جهل بشأن العالم وبأقسام الحيوان، وهم يظنون أن على الدين من الاقرار بهذا القول مضرة ، وليس القول كما قالوا ، وكل قول يكذبه العيان فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهبا ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة ، وان ذهب الذاهب الى أن لا يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرأي ، دون القطع على غيب حقائق العلل فأجراه في كل شيء ، وقال قد لا يدفعه العيان أيضا مع انكار الدين له . وقد علمنا أن الانسان يأكل الطعام ويشرب الشراب وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق منها في جوفه ألوان من الحيات وأشكال من الديدان من غير ذكر ولا أنثى ، ولكن لابد لذلك الولاد واللقاح من أن يكون عن تناكح طباع ، وملاقاة أشياء تشبه بطباعها الأرحام ، وأشياء تشابه في طبائعها ملقحات الأرحام !!

شواهد من الكتاب تبرز أسلوب الكاتب وطريقته في التفكير :

كان الجاحظ كما قدمنا جامعا حافظا راويا ، جمع لنا ما ورد من الحيوان في مضرب الأمثال « يقال أجرأ من الليث وأجبن من الصفرد (نوع من الطيور الصغيرة) وأصبر على الهون من كلب ، وأحذر من عقعق (نوع من

الغربان) وأزهى من غراب ، وأظلم من حية ، وأغدر من الذئب ، وأشد عداوة من عقرب ، وأحمق من حبـــارى (طائر صحراوى) ، وأهدى من قطاة ، وأكذب من فاختة (طائر عـــراقى) والأم من كلب على جيفة ، وأجمع من ذرة ، وأضل من حمار أهلى ، وأعق من ضب ، وأبر من هرة ، وأنفر من الظليم (ذكر النعامة) ، وأضـــل من ورل ، وأضل من ضب ، وأضل من الحية ، وأبصر من عقاب ، وأسمع من فرس ، وأصبح من الظليم .

ومن بلاغته « .. ما أودع صدور صفوف سـائر الحيوان من ضروب المعارف ، وما فطرها عليه من غريب الهدايات ، وسخر حناجرها له من ضروب النغم الموزونة والأصوات الملحنة ، والمخارج الشجية والأغانى المطربة . فقد يقال ان جميع أصواتها معدلة وموزونة موقعـــة ، ثم الذى سبيل لها من الرفق العجيب فى الصفة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها وأكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف والصنعة البديعة ، من غير تأديب وتثقيف ، ومن غير تقويم وتلقين ، ومن غير تدريج وتمرين ، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها من البديهة والارتجال ، ومن الابتداء والاقتضاب ، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأى وفلاســـفة علماء البشر بيد أو آلة ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا ، لا من جهة الاقتضاب

والارتجال ، ولا من جهة التعسف والاقتـــدار ، ولا من جهة التقدم فيه والتأنى فيه والتأتى له ، والترتيب لمقدماته وتمكين الأسباب المعينة عليه ، فصار جملة الانسان الثاقب الحس ، الجامع القوى المتصرف فى الوجوه ، المقدم فى الأمور يعجز عن عفو كثير منهـــا ، وهو ينظر الى ضروب ما يجىء منها ، كما أعطيت العنكبوت وكما أعطيت السرفة (نوع من الحشرات) وكما علم النحل ، بل عرف التنوط (طائر) من بديع المعرفة ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق .. » .

ثم وهو يدافع عن طريقته فى الكتـابة .. « وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه ، وأراك قد عبتـــه قبل أن تقف على حدوده وتتفكر فى فصـــوله ، وتتفكر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيـــه بعض ما رأيت من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت وأى شىء أريغ بها ، ولأى جد احتمل ذلك الهزل ولأى رياضة تجشمت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطـــالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة .. » .

ومن صدق مشاهداته ما وصف به الذرة وهى تجمع غذاءها .. « حتى ربما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس ، ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها فى الشمـــم

والاسترواح ما ليس لشيء ، وربما أكل الانسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد ، فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة ، وليس يرى بقربه ذرة ، ولا له بالذر عهد فى ذلك المنزل ، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة الى تلك الجرادة ، فترومها وتحاول قلبها ونقلها وجرها ، فاذا أعجزتها بعد أن بلغت عذرا مضت الى جحرها راجعة ، فلا يلبث ذلك الانسان أن يراها قد أقبلت ، وخلفها كالخيط الأسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها ، فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الانسان الجائع ، ثم بعد الهمة والجراءة على نقل شيء فى وزن جسمها مئة مرة وأكثر من مائة مرة ، وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مرارا غيرها ، وعلى أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف الا بعد انقطاع الأنفاس ، فان قلت وما علم الرجل أن التى حاولت نقل الجرادة فعجزت هى التى أخبرت صويحباتها من الذر ، وأنها كانت على مقدمتهن ؟ قلنا بطول التجربة ، ولأنا لم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة الا رأينا معها مثل ذلك ، وان كنا لا نفصل فى العين بينها وبين أخواتها فانه ليس يقع فى القلب غير الذى قلنا ، وعلى أننا لم نر ذرة قط حملت شيئا أو مضت الى جحرها فارغة فتلقاها ذرة الا واقفتها ساعة وخبرتها بشيء ، فدل ذلك على أنها فى رجوعها عن الجرادة انما كانت لأشباهها كالرائد لا يكذب أهله .

ومن صدق مشاهداته ودقته أيضا مع بلاغة الأسلوب ما جاء فى الباب عن الحمام فى ابان التزاوج ورعاية الفراخ ، يقول « فاذا علم الذكر أنه أودع الأنثى ما يكون منه الولد ، تقدما فى أعداد العش ونقل القصب وتشقيق الخوص وأشباه ذلك من العيدان الخور الرقاق ، حتى يعملا الخوص وأشباه ذلك وينسجاه نسجا مداخلا ، وفى الموضع الذى اتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ، ثم أشخصا لتلك الأفحوصة حروفا غير مرتفعة ، لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج ، ليكون رقدا لصاحب الحضن وسندا للبيض ، ويرفيانها ويطيبانها وينفيان عنها طباعها الأول ، ويحدثان لها طبيعة أخرى مشتقة من طبائعهما ، ومستخرجة من رائحة أبدانهما ، وقواهما الفاضلة من أرحامهما ، مع الحضانة والاثارة ، لكى لا تنكسر البيضة بيبس الموضع ، ولئلا ينكر طبائعها طباع المكان ، وليكون على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة ، واذا وضعت الأنثى البيض فى ذلك المكان ، فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه ، حتى اذا بلغ البيض مداه ، وانتهت أيامه ، انصدع البيض عن الفرخ ، فخرج عارى الجلد صغير الجناح قليل الحيلة ، منسد الحلقوم ، فيعينانه على خلاصة من بيضه وترويحه من ضيق هوانه ، وهما

يعلمان أن الفرخين لا تتسع حلوقهما للغذاء ، فلا يكون لهما عند ذلك هم الا أن ينفخا فى حلوقهما الريح ، لتتسع الحوصلة بعد التحامها ، وتنفتق بعد ارتفاقها ، ويعلمان أنه ان امتنعت الحوصلة شيئا لا يحتمله فى أول غذائه ، أنه يزق بالطعم ، فيزق باللعاب المختلط بقواهما وقوى الطعم ، وهم يسمون ذلك اللعاب اللبأ ، ثم يعلمان أن طبع حواصلهما يضعف عن استمرار الغذاء وهضـــم الطعم ، وأن الحوصلة تحتاج الى دبغ وتقوية ، وتحتاج الى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة ، فيأكلان من صروح أصــــول الحيطان ، وهى شىء بين الملح والحمض ، وبين التـــراب الخامص ، فيزقان الفرخ ، حتى اذا علمـــا أنه قد اندبغ واشتد ، زقاه بالحب الذى هو أقوى وأطرى ، فلا يزالان يزقانه بالحب والماء على مقدار قوته ومبلغ طاقته ، وهو يطلب ذلك منهما ، ويبض نحوهما ، حتى اذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج الى اللقط فيتعوده ، حتى اذا علما أن ذاته قد تمت ، وأن أسبابه قد اجتمعت ، وأنهما ان فطماه فطما مقطوعا مجذوذا قوى على اللقط ، وبلغ لنفسه منتهى حاجته ، ضرباه اذا سألهما الكفاية ونهياه متى رجع اليهما للعادة ، ثم تنزع تلك الرحمـــة

العجيبة منهما له ، وينسيان ذلك العطف ايتمكن عليه ، ويذهلان عن تلك الأثرة والكد المضنى من الغـــدو يوميا عليه ، والرواح اليه ، ثم يبتديان العمل ابتداء ثانيا على هذا النظام ، وعلى هذه المقـــامات • فسبحان من عرفهما وألهمهما وهناهما وجعلهما دلالة لمن اســـتدل ومخبرا صادقا لمن استخبر ، ذلكم الله رب العالمين ..

وعن حيرته العلمية وشكله ما يقول عن الخفاش « ومع أنه طائر من عرض الطير ، فانه شديد الطيران كثير التكفى فى الهواء سريع التقلب فيه ، ولا يجوز أن يكون طعمه الا من البعوض ، وقوته الا من الفراش ، ثم لا يصيده الا فى وقت طيرانه فى الهواء ، لأن البعوض انما يتسلط بالليل ، ولا يجوز أن يبلغ ذلك الا بسرعة اختطاف واختلاس ، وشدة طيران ولين اعطاف ، وشدة متن وحسن تأن ورفق فى الصيد ، وهو مع ذلك كله ليس بذى ريش ، انما هو لحم وجلد ، فطيرانه بلا ريش عجب ، ومن أعاجيبه أنه لا يطير فى ضوء ولا فى ظلمة ، انما يلتمس الوقت الذى لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامرا قاهرا ، وعاليا غالبا ، ولا من الضـــياء ما يكون مغشيا رادعا ، ومفرقا مانعـــا ، فالتمس ذلك فى وقت غروب القرص وبقية الشفق ، لأنه

في وقت هيج البعوض وأشباه البعوض · ومن أعاجيب الخفاش يقول يزعمون أن السك الآذان والممسوحة من جميع الحيوان أنهـــا تبيض بيضا ، وأن كل أشرف فهو يلد ولا يبيض ، ولا يدرى أن الحيوان اذا كان أشرف الآذان واذا كان ممسوحا باض · ولآذان الخفافيش حجم ظاهر وشخص بين ، وان كانت من الطير فان هذا لهـا ، فهى تحبل وتلد وتحيض وترضع ، والخفاش من الطير ، وليس له منقار مخروطة ، وله فم فيما بين مناسر السباع وأفواه البوم ، وفيه أسنان حداد صلاب من أطراف الحنك الى أصول الفك » · وقد ميز أيضـــا الخفاش الذى يتغذى بالفاكهة وهكذا نستبين أن الجاحظ وقد وضع الخفاش بين الطيور ، ولم ينكره الا أنه يفارق بينه وبينها في عبـارة صادقة ، وانما قد نهج في ذلك ما ذهب اليه العلماء من قبله من أيام أرسطو ، وظل الأمر على هذا النحو قرونا عديدة بعد الجاحظ حتى ضم الى الثدييات ·

أثر الكتاب :

وأبرز أثر لكتاب الحيوان ، هو أن طريقة الجاحظ في الكتابة ، التي أطلق عليها طريقة الازدواج والاطناب قد اقتدى بها كتاب عصره ، ثم الكتاب من بعدهم قرنا من الزمان ، أى الى نهاية العصر العباسي الثاني ، وان كان

هذا التأثير لا يرجع الى كتاب الحيوان وحده من بين كتب الجاحظ · وقد روى عن الجاحظ كثير من العلمـاء مثل القزويني والدميرى واقتبسوا منه ·

وفي المجلد الثاني من كتاب عيون الأخبار لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، تحت عنوان كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة ، مقتطفات عن الحيوان ، فيها تشابه بما ورد في كتاب الجاحظ الذى توفى سنة ٢٥٥ هـ ، على أن الاثنين كانا معـاصرين في بعض أيامهما ، ولا ذكر للجاحظ في كتـاب الدينورى ، وكما ولا ذكر للدينورى في كتاب الجاحظ ، فان كانا غير عارفين بعضهما لبعض فقد يكونا قد نقلا من مصدر واحد ، وان كنت أغلب أن الدينورى قد نقل عن الجاحظ ·

غير أنه ممـا يستوقف النظر أن الكتـاب الغربيين الذين أرخوا للعلم لم يشيروا الى الجاحظ كعالم ، وانى لفي حيرة من أمر هؤلاء لأن الكتاب مشحون بالمشـاهدات الصادقة التي ان دلت على شيء فانما تدل على صفاء ذهن صاحبها ومقدرته الفائقة (٢) · على أن الكتاب ليس خلوا

(٢) بعد أن فرغت من كتابة هذا الموضوع قرأت في أهرام الجمعة ٧ يونيو ١٩٦٢ أن احدى دور النشر الشهيرة بسويسرة أصدرت كتابا بعنوان التصوير العربى أخرجته في مجلد فاخر مليء باللوحـات الملونة التي يصور بعضها نواحى من كتاب الحيوان للجاحظ وغيره من مؤلفات عربية قديمة ·

من الخرافات ، وهى من ذلك الباب الذى يميز كتب العصور الوسطى وما قبلها ، أى العصور التى لم تجتمع فيها للعلم أسبابه ولا تهيأت له فيها امكانياته .

على أن كتاب الحيوان ، على كثرة ما جاء فيه من علم ومعرفة بالحيوان ، يطلبه طالب أدب أكثر مما يطلبه طالب علم ، ولا عجب فقد ذاع صيت صاحبه على أنه كبير أئمة الأدب .

وفى رأينا أن بالكتاب عبارات تعبيرية بديعة ، وأسماء عربية فصيحة تعوزنا الحاجة اليها أيما عوز ، فى عصرنا الحاضر الذى يتسم بنهضة شاملة نحو الترجمة ، ولو أن هذا الكتاب بوب وصنف وعصر واختبست منه تلك العبارات الوصفية والأسماء الفصيحة ، ووضع لها ما يقابلها من لغات الغرب التى ننقل عنها ، لكانت عونا كبيرا للمترجمين ، ولأحيينا تراثا انسانيا ثمينا نحن فى أمس الحاجة اليه .

رحم الله الجاحظ وطيب مثواه وغفر له .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٣٧٢

ISBN — 977 — 01 — 3969 — 6